مظاهرات
غير مرخصة!!

عماد نداف

مظاهرات
غير مرخَّصة!!

قصص قصيرة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٦م

مظاهرات غير مرخصة: قصص قصيرة / عماد نداف.– دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م.– ١١٢ص؛ ٢٠ سم.
(قصص قصيرة ؛ ٣٨)

١– ٨١٣.٠٢ ن د ا م ٢– ٨١٣.٠٠٩٥٦١ ن د ا م
٣ – العنوان ٤ — نداف ٥– السلسلة

مكتبة الأسد

قصص قصيرة
«٣٨»

الإهداء

إلى الثلاثي أضواء مسرح حياتي

منى، وأكاد، وجالا.

فبين قلوبنا لم يكن هناك مسافات أبدا ولذلك حكاية أخرى!

فجر ١ /١/ ٢٠١٤

عماد نداف

مُقَدِّمَة

كثيرون يعتقدون بانهيار عملية القراءة في حياتنا.

ليكن...

لقد انهارت في التاريخ حضارات كاملة، انهارت جيوش ودول، ولكن بالله عليكم هل يمكن أن نصل إلى انهيار الطرق الواصلة بين القلوب؟!

ذلك ما دفعني إلى محاولة الوصول إلى قلوب الناس بأقصر الطرق؟!

إن أقصر الطرق، هو الخط المستقيم الواصل بين نقطتين، وهذه حقيقة علمية ليست معقدة:

النقطة الأولى: الكلمة! ***النقطة الثانية: القلب!***

هيا إلى أقصر الطرق بين نقطتين، فقد دميت القلوب، وغابت الكلمات!

دمشق في ١٢/٣١ / ٢٠١٣

عماد نداف

سنابل الأرض الطيبة!

أمسك الفلاح السنبلة. كانت يابسة. سأل نفسه: «هل حلَّ موسم الحصاد؟!».

طحن حباتها بإصبعيه، فإذا هي تنزف دماً!

خاف!

ربما سال الدَّم منه.. رماها.. أمسك الثانية.. طحنها.. إنها تنزف دماً!

والثالثة.. والرابعة.. والخامسة..

بكى..

صاح بوجع: أيها الأرض.. من أيّ ماء شربت؟!

خرج ولم يعد!

انتظرته...

جاءت قبل الموعد بخمس دقائق، وظلت بعد الموعد خمسة أيام!

لم يأت، ((يا الله.. لماذا لم يأت؟!)).

يقال إنَّ كلّ من مرَّ في ذلك الشّارع شاهدها وهي تتفقد السّاعة كلّ دقيقة، ولم يأت.. لم يأت أبدا رغم أنّها انتظرته أكثر مما يتوقع العالم!

ترى أين يكون؟

انشقت الأرض وبلعته يعني؟!..

بالله عليكم: أين يكون؟!

النجاة!

لم تكفه كل الأخشاب التي جمعها لبناء قارب صغير ينقذه من الطوفان. ركض يبحث عن حلٍّ، وكانت الريح تعول، والمطر يسقط، والأرض تفور فتنذر بسيل كبير. كانت الأصوات تترامى من كلِّ الاتجاهات، فتصنع جلبة الكارثة!

في آخر لحظة، و قبل أن ينهار فوق زورق وهمي، شاهدهم:

إنَّهم لا يبنون سفناً للنجاة ولا يركضون لرفع الأشرعة، ولا يبحثون عن كهف في جبل عالٍ.. كانوا يرتبون كل شيء تحت وابل المطر والعواصف، وكأنهم يرسمون لحقول قادمة وأزهار وقمح وعصافير!

خريف ٢٠١٣!

استيقظ الولد صباحاً. نظر من النافذة. كانت الأشجار تُبدّل ثيابها، فأثاره المشهد: الورق الأصفر يلوِّن الشَّارع. الأغصان تنكشف كسواعد بضة.. هناك مطر يهطل فيغسل كل شيء. هناك أصوات رصاص كثيف ودوي انفجارات قريبة...

نزل الولد إلى الشَّارع. فتح ذراعيه على آخرهما، رفع رأسه إلى السماء، وراح يدور ويدور ويدور، وكان المطر يهطل والأوراق تتساقط والرصاص يلعلع والانفجارات تدوي! !

امرأة من ذهب!

اشتكت امرأة في السوق بأنها أضاعت جزدانها.

وبدلاً من أن يتضامن معها الناس،.. نظر كل منهم في وجه الآخر باستغراب، ثم ضحكوا، وهم يسألون:

ـ معها جزدان؟! معها جزدان؟! ماذا تضع به؟

معركة فاصلة!

انقطع التيار الكهربائي فسادت العتمة في البيوت!

خرج الأطفال إلى الشارع. قال محمود: سنلعب حتى تعود الكهرباء، فالتلفزيون توقف.

رد سعد: سنلعب بالكرة.

احتج محمود: أنت لا تعرف لعب الكرة.

تخانقا!

قال محمود: سأذبحك!

وقال سعد: سأقطع رأسك وأضعه على رمح!

قفز محمود و رماه على الأرض وجلس على صدره. تعاركا، فتمكن سعد منه، وجلس على صدره. هدده: أنت لاتفهم إلا بالقوة. هه.

ولكمه. رد محمود بلكمة، فشد سعد على رقبته ليخنقه. وشد محمود على رقبته ليخنقه. احمَّرت عيون سعد ومحمود.. صارت مثل الجمر. نظر كلّ منهما بعيني الآخر...

قال سعد: عيناك حمراوان. يجب أن يأخذك أبوك إلى الطّبيب!

أجابه محمود: وأنت عيناك حمراوان أيضاً!

فردّ سعد: قل لأبيك يأخذني معك إلى الطبيب، فأبي مسافر!

قال محمود: لاتخف.. سنذهب معاً.. أبي يحبك!

ومازالت المعركة مستمرة!

مذبحة!

كان الوقت ليلاً، والأطفال يحلمون بطابة ومنفوش السكر المعروف بغزل البنات، وكانت الصبايا يحلمن برسائل تأتيهن من تحت الباب، وكانت الأمهات يدعون الله أن يعود الشباب سالمين إلى القرى..

شقَّ الصمتَ والعتمةَ صوتُ رصاص متقطع. كان يزداد أحياناً ويتراجع أحياناً أخرى. تعالى صراخ من كلِّ الجهات، اختلط الصراخ مع الولاويل، ثم غاب الصراخ، وتراجعت الولاويل، وبقيت أصوات حشرجة لأشخاص لم يموتوا بعد!

الشاهد لم يصدق. جن، وقال:

هذه لعبة ((بلاي ستيشن)) أمريكية!

رسالة إعلان: حر ب أهلية!

اتركني!

أنا لم أعد أحبك!

ما تفعله لايعنيني. أنت بعت حبي للشيطان. بعت كل شيء بيننا. بعت حتى الأشياء الصغيرة التي تجمعنا...

أتذكر؟

أتذكر كيف أخذت من جديلتي شعرة طويلة وزرعتها في تراب الحديقة..

كم بكيت يومها!

قلت لي: سينبت شعرك حباً في هذه الأرض؟!

اتركني، فكيف تخلع اليوم تلك الشعرة الطويلة، وتعلن موسم الكراهية!

امرأة الأمل!

جاءتني في آخر الليل...

كـان قَـرْعُ البـاب شـديدا إلى الدرجـة التـي جعلتنـي أنهـض كمجنون.

فتحتُ الباب. وجدتها، وقد بلَّلها المطر. وقلتُ: ادخلي.. ادخلي!

لم تدخل. أعطتني ورقة مطوية، وعادت تركض تحت المطر. فتحتُ الورقة، قرأتها، ومثل مجنون لحقت بها: هي.. هي.. توقفي!

بللني المطر. واجهني الهواء البارد. ولم أتوقف. بحثت في كلِّ مكان، ولم أجدها، وإلى الآن أبحث عنها!

أتعرفونها؟

امرأة من ورد وياسمين، توزع أوراقاً كتب عليها:

ـ انتبهوا، سورية في خطر!

خـروف !

نمت باكرا ليلـة العيـد. وعنـدما اسـتيقظت فجـرا، لم أشـأ أن أوقظ الخروف الموجود في داخلي، قلـت في نفـسي: ((دعـه ينـام، فقد يظن أنني سأذبحه!)).

أفاق الخروف لوحده.

كـان مكفهـرَ الوجـه، لا يعلـم أننـي سـآخذه إلى الحديقـة، وأركض أمامه ويركض خلفي!

فككت رباطه فرمقني برجاء واضح، وكأنه يقول لي: لاتذبحني.

وانطلقنا، هو يركض وأنا أركض.. هو يلعب وأنا ألعب..

أضـحك وأضـحك، و الخـروف يـضحك ويـضحك، ولم نتوقف عن الضحك إلا عندما سقطت قـذائف الهـاون حولنـا، فتحولنا إلى ذئبين!

رسالة عشق!

خبأت كلَّ هذه الورود لك. ألاحظت حجمها؟!

أعلى من قاسيون، وأوسع من البادية، وأعمق من كلِّ الكلام..

ألاحظــت رائحتهــا؟ يــا الله.. تجعلنــي أطــير في دوامــات الأرواح السامية؟

ألاحظت ألوانها.. كومة أقواس قزح قادمة من جنة..

خبأت كلَّ هذه الورود لك.. أتعـرفين مـن أيـن جئـت بهـا؟! من قلبي!

طويت الرسالة، وأودعتها البريد: إلى الشام!

أرملة الحرب!

لوحت بيدها، وبكت!

كانت تعرف أنها لن تراه أبدا..

فكيف سيعود، وقد أخذته الحَمامات إلى الغيم!

فاتورة!

ضاق حالها، فسألته:

ما الذي ستفعله بما بقي معنا؟!

فأجاب:

بقي معي قليل من المال، سأتصرف به بطريقة تليق بالوضع الراهن:

سأشتري باقة ورد للشهداء الطيبين..

وأشتري قلم ((فلوماستر)) أكتب فيه قصصا على أنقاض الحرب في بلادي.. وأشتري كمشة قمح للعصافير التي مازالت تزقزق!

الأمل!

العصفور الذي في بيتنا، أمضى نهاره عطشا.

جفَّ الماء في قفصه. لم يحك. لم يحتج. كان يعرف أن البلاد غير البلاد، وأن العباد غير العباد..

في آخر نفس كان يأخذه قبل أن أنجده بالماء..

لم يجد شيئا يفعله سوى الزقزقة!

تقرير أمني!!

السيد رئيس الفرع:

زرت الحي القديم الذي عشت فيه ((الجسر الأبيض))، ثم صعدت إلى ((جبل الصالحية))، و تجولت في ((سوق الجمعة))..

دخلت ((جامع الشيخ محي الدين بن عربي))..

الناس كما هم هناك!

طيبون، بسطاء، كرماء، يدخلون إلى مقام الشيخ ويتباركون به، ويقرؤون القرآن الكريم..

أعجبني أحد ((المجاذيب)) الذي يضع لفة خضراء على رأسه، ويجلس في ركن الجامع الخارجي. كان لا يخاف من

الحرب ولا يقف في طابور الخبز ولا يخزن الطعام، ولا يـشوش على من يقرؤون القرآن الكريم في الجامع!!

سألته عن أمريكا، فقال لي: لم أسمع بها!

قلت له: هي دولة عظمى ستضربنا بصواريخ التوما هوك!

رد بيقين: الشيخ محي الدين لا يخاف أحدا!

الطفل العنيد

أيها الطفل العنيد..

لماذا تعاند أمك.. لماذا تقول لها: لابد أن أخرج إلى العيد.. لابد أن أركب في أرجوحة العيد.. لابد أن أشتري لعبة.. لابد أن أركض في شوارع بلادي ولا أخاف..

اسمع.. أمك تقول لك: لا تخرج.. ها.. هل سمعت.. ستؤنبك لو خرجت.. ربما تقول لك أنت ولد مشاغب.. أنت لا تعرف ما الذي سيحصل لها لو أنك أصبت بقذيفة أو رصاصة أو سيارة مفخخة.. أنت لا تعرف أن قلب الأم أرقُّ من جناح فراشة.. لذلك أنا سأقول لك ماذا تفعل..

ها.. هيا!

ارسم على ورقة صغيرة فراشة ملونة.. تذكَّر أن يكون لها جناحان أرق من قلب أمك.. قل لها: أيتها الفراشة خذيني إلى العيد.. خذيني إلى أغنية من بلادي..

رسم الطفل الفراشة الملونة على قميصه الجديد..

لبس القميص ونظر إلى نفسه في المرآة!

تحركت الفراشة. هزت جناحيها، وطارت. طار الطفل معها فأخذته للعيد..

خرج الطفل للعيد.. والعيد في بلادي: حرب وأراجيح وفراشات مرسومة على قمصان لأطفال يلعبون!..

تحذير !

وقف الطفل عند النافذة، دمعت عيناه، ثم أخذ يهذي:

هيه يابابا نويل..

أعرف أن كيسك فارغ. أعرف أن الخبز قد نفد منه، والمازوت، والبيوت الآمنة، والفراشات، والألعاب، وحكايات الجدة..

أعرف أن كيسك فارغ ليس فيه سوى المحبة، والجميع يهتفون لك: أين تباع وأين تُشترى في ضجيج الدم والموت..؟

آه يابابا نويل.. أعرف أن كيسك فارغ، فاحذر من عبوة فيه!!

وصية كاتب !

أيها القاتل من بلادي..

لا أريدك أن تذبحني بالسكين!

ولا أحب أن أموت رميا بالرصاص.. وأكره من كل قلبي أن أموت كما تموت البعير وسورية وفلسطين خلف ظهري.. وأتكهرب حين أسمع أن شخصا مات وهو ينزف!!

اسمع كيف يمكنك قتلي:

ضع يدك الأولى على يدي اليمنى.. ضع يدك اليسرى على قلمي..

امنعني من الكتابة، ولا تنظر إلى عيني اليمنى ففيها أراك أخا، ولا تنظر إلى عيني اليسرى، ففيها أراك أملا.. انظر إلى قلبي وهو يخفق ثم: اذهب وعد بعد يومين.. تجدني حمامة!

السارق والمسروق
والكامخ بينهما !

جلس الرجل وراء مكتبه سعيدا، وواسع الابتسامة. سرق من ضيفه مئة ألف. رتبها جيدا. ضرب حروفها على الطاولة بسعادة، ثم وضعها في جيبه...

قال الضيف: إن شاء الله تصرفها بالهنا...

فرد الرجل: بارك الله فيك!

كان الضيف يعرف أن الرجل أخذها من جيبه، ولم يكن يجرؤ أن يقول له: إنها لي..

كان يخاف من الطاولة!!

طارتْ. تْ. تْ!

الطاولة مدورة. كل الكراسي كانت مريحة. كانت هناك زجاجات ماء وصودا ومآخذ صوت.. جلس كل واحد على كرسي. كان كل منهم يرتدي ربطة عنق. وضعت الملفات على الطاولة. أمام كل شخص كان هناك ملف. ابتدأ الحديث:

تعالت الأصوات. لم تعد الطاولة مدورة. لم تعد الكراسي مريحة. فكت ربطات العنق. هرق الماء والصودا على الطاولة..

طارت الملفات.. طارتْ.طارتْ تْ تْ!

مظاهرة غير مرخصة!

خرج كثيرون إلى الشّارع...

حمل كلّ منهم كتاباً. هذا كتابه بيمينه. وهذا كتابه بيساره.. في كلّ كتاب أُخفي علم صغير... سأل أحد المارة:

ـ ما الذي تخفونه في كتبكم؟!

انتبه رجل الشرطة، فرفع صوته بغضب:

ـ هيا أخرجوا ماتخفونه!

انصاعوا إلى أوامره. فتحوا كتبهم، رفعوا الأعلام على مساحة المشهد، فإذا هي: مظاهرتان غير مرخصتين!

طقوس !

نهض الرجل، يبحث عن مهنته التي ضاعت!

كان يشرب سيكارة عندما يهم بكتابة قصيدة، وكـان يـشرب قدحا عندما يهم بإلقاء قصيدة، ولكنه: لم يعد يكتب!

صار يشرب عشرين سيكارة عندما تفر منه الكلمات. صـار يشرب عشرين قدحا عندما يرفضون السماح له بإلقاء القصيدة. صـار ينـشر صـمته عـلى أرصـفة الـشوارع لكـي يقرأهـا العـالم دون خوف!

الكاتب الشهير جدا
مثل مغنية !

كتب في دفتر يومياته الجديد:

لم تخفِ السيّدة شيئاً عليَّ. أخبرتني صراحة أنني بدأت أفهم اللعبة. وصفتني بالمخضرم. وهمست:

هه! يا لعين!.. يا أستاذ مدحت.. جعلت الصحفيين يكتبون عن الأغنية وكأنها اختراع!

وأضافت:

لقد ارتبط اسمك باسمي!

البحار !

يوم وضعت السفن مراسيها وأقلَعت عن السفر، لم يكن يعرف أنَّ الحرب بدأت. لم يكن يعرف أن الأشرعة احترقت والمجاديف تكسَّرت، لم يكن يعرف أنَّ الحصار قد اكتمل..

انتفض كذئب جريح، نهض إلى الموج، لوّح بقبضته السّمراء، ورمى بنفسه إلى الموج، وعلى هدير الحرب، شاهد النَّاس سفينة تشق الطريق في عرض البحر باتجاه المدى وليس هناك من يقودها!

همس

تغيّر لون المقهى!

كيف يتغيّر لون المقهى؟

يدخل اثنان، الأول متجهم الوجه، والثاني مجنون النظـرات. فيكفُّ النّاس عن الثرثرة؟ وتكفُّ الأراكيل عـن القرقـرة، يعلـو صوت من هنا ومن هناك: واحد شاي، واحد قهوة للشباب!

يجلس الاثنان، فيتحول ضجيج المقهى إلى همس!

عيون الأم !

وضع الطفل قبعة زرقاء.

قال أريدها بلون البحر.

قال أريدها بلون السماء.

قال أريدها بلون عيني أمي.

قال أريدها بلون الخرزة التي علَّقتها أمي على صدري..

انتبه إلى توافق لون القبعة مع الخرزة. فك الخرزة ووضعها على القبعة. وضع القبعة على رأسه.. هبَّت الريح. طارت القبعة. راح يركض خلفها. يركض ويركض ولون البحر يركض والسماء تركض والخرزة تركض، وعيون أمه تركض وتصرخ وتصرخ.. حمراء صارت. كانت تناديه: انتبه إلى نفسك يا حبيبي!

عقب آخيل

رمت الطائرات القنابل على بيتي. حطمت كل شيء. لم أمتْ!

خرجتُ من تحت الأنقاض، لا أريد أن أموت.. رفعتُ راية بيضاء: كانت مصبوغة بدم أمي التي ماتت منذ سنوات.. رفعت راية خضراء: كانت مصبوغة بدم أبي الذي قتل دهسا على أحد الطرق. رفعتُ راية زرقاء: كان قد رُشق عليها دم أخي الذي مات من الضحك نتيجة دغدغة السرطان له في حلقه وبطنه..

لم يستجب أحد إلى راياتي، وظلوا يطلقون..

أطلقوا عليَّ الرصاص.. أطلقوه بغزارة إلى أن اصابوني بكاحلي، فدب الوهن فيَّ.. ورحت أنتظر طائر الغمام الأسود بملل!

الجواسيس !

طرق الغراب على باب غرفتي!

سمعت صوته.. أنا متأكد أنني سمعت صوته، قال لي:

ـ قم.. هيا!

غمرت رأسي بالغطاء السميك، لا أريد أن أسمع صوت الغراب.. أنا متأكد من أنني لا أريد أن أسمع صوت الغراب!

لا أريده.. لا أريده صدقوني!

كل الغربان تتجسس عليَّ، وتُخبر الشرطة أنني متفائل أكثر من اللازم، وأني أُخطط لمظاهرة كبيرة.. كبيرة تطالب بالأمل!

روتين !

لم ينتبه السيد إلى عنقه المقطوع عند الحنجرة!

نهض كعادته كلّ صباح، يريد أن يشرب قهوته ويدخن سيكارته ويستعيد أحلامه!

كان يتوقع أشياء كثيرة.. إلا ذاك الذي حصل معه قبل يومين!

غسل وجهه، وارتدى ثيابه!

أعدَّ القهوة سريعا، وملأ الفنجان، ثم أشعل سيكارة، ورفع القهوة بيده ليشرب منها مثلما يفعل كلّ صباح..

بدأ السيد استرجاع أحلامه.. شرب القهوة، وسحب من سيكارته ونظر إلى الأفق!

تدفقت القهوة من عنقه، وتناثر الدخان أمام وجهه!

الطابة!

تجمَّع الأطفال في حلقة دائرية..

قال لهم زعيمهم، وهو طفل مشاغب أشعث الشعر، علَّمته أمه أن لايخاف من أبيه ولا من الشرطة:

ـ لم نعد نرغب في المدرسة. نريد أن نلعب بالطابة!

وقال طفل آخر:

ـ الأساتذة يعلموننا كلاما لاينفعنا.. الطابة أحلى!

وقال طفل ثالث:

ـ المدرسة مثل السجن مغلقة الأبواب ولها جرس للدخول والخروج!

وقال رابع:

- المدرسة مثل المستشفى.. أشعر أنني مريض فيها!

عندما كبروا. زَجَر الطفل ذو الشعر الأشعث، مجموعة فتيان، وقال:

- لا نحتاج للطابة.. الرؤوس أفضل!

الطفل ذو الشعر الأشقر
والعينين الزرقاوين!

اقترب من السيارة. وضع يديه على حافة نافذتها. كانت إشارة المرور قد أضحت حمراء لتوها، وبعينين متوهجتين وبذكاء مدفون، قرأ نصه الذي حفظه بعناية كبيرة:

- أعطني خمس ليرات.

وتابع دون أن يلتقط أنفاسه:

- ألله يرضى عليك ياعمو. أنا بحاجة إليها. أمي مريضة. أبي مصاب بالسرطان. أريد أن آكل. أنت رجل طيب ياعمو. كل الناس لايعطونا. ما عندهم شفقة ياعمو. أنت رجل طيب. أعطني خمس ليرات. خمس ليرات بس!

مشت السيارة، كانت إشارة المرور قد أضحت حمراء لتوها.

تراجع الطفل بعينين رماديتين انطفأ فيهما الأمل تماما.. لكنه سمع رنين خمس ليرات معدنية رميت عند حافة الرصيف!

اليد الخائفة!

كان الطريق فارغا إلا من الأيادي. أيادٍ كثيرة في الطريق!

لايوجد رؤوس. لايوجد أقدام. لايوجد عيون.. يوجد أيادٍ كثيرة: أيادٍ تتصافح.. أيادٍ تلوِّح من بعيد. أياد تُصفق. أيادٍ تَبيع. أياد تشتري. أيادٍ تُداعب المفاتيح.. أيادٍ تخشخش بالأساور.. أيادٍ تقرص!

كان ثمة يدٌ واحدةٌ تريد أن تُصفق.. تريد أن تُوقظ إنسانية الناس، فلا تستطيع...

كانت تركض بسرعة.

تضع أوراقا تحت الأبواب وتركض..

تتلفت يَمْنة ويَسْرة تُحاول أن تختفي، فلا تستطيع...

لحقت بها يد أخرى. كانت مقطَّبة الحاجبين. وصلتْ إليها. صفَعَتْها. أمسَكَتْها، ثم اصطَحَبَتْها إلى مكان ما!

أنوف !

اندفع الناس في الشوارع. كانت أُنوفهم مرفوعة إلى فوق مثل ذيول العنزات. شكَّلوا حشودا مفزعة. خافت الشرطة من الفوضى. فانتشرت على مفارق الطرق. سأل واحد وهو يمسح أنفه بذراعه:

- ما الذي يجري؟!

دفعته الحشود، فوقع على الأرض واصطدم وجهه بحافة الرصيف. فسال دم غزير من أنفه..

الحشود اندفعت أكثر. قال واحد فضولي:

- سيخنقون بعضهم بعضا!

رد عليه رجل ثالث:

- لاتحشر أنفك بما لايعنيك!

وضربه بقبضته على أنفه، فصرخ من الوجع!

سيطرت الشرطة على الموقف. ونبَّهت الجميع إلى مخاطر الفوضى، وهددت أنها ستكسر أنفَ كل من يخرق القانون!

صَفَّقتْ امرأة بدينة غابت التعابير عن وجهها، وقالت:

- خلصونا بقا!

ثم وضعت إصبعَها في أنفها، ومضت تنظِّفُه ببلادة!

حق التعبير !

قرر السادة المسؤولون الخروج في تظاهرة. قال واحد منهم:

- الجميع يعبّرون عن رأيهم. ونحن ألا يحق لنا أن نُعبّر عن رأينا؟!

وقال مسؤول ثانٍ:

- هذا ظلم! يجب أن نعبّر عن رأينا!

وردد ثالث قصير القامة، على وجهه نظارات سوداء، يشرب السيجار الكوبي:

- سنخرج في تظاهرة أسوة بغيرنا!

اتفقوا على الموعد، وراحوا يُعدُّون العدَّة للتظاهرة: ماذا سيكتبون في اللافتات؟ من سيحمل اللافتات؟ هل هناك هتافات؟ مَنْ سيرفع مَنْ على كتفيه؟!

لم يجدوا حلولا مناسبة إلا بعد ليلتين من التشاور، وكان الحلُّ جهنميا:

- نطلب من مديري مكاتبنا أن يجمعوا الموظفين لحمل اللافتات، ثم يقوم بعضهم بحمل بعضهم الآخر لترديد الهتافات!

وطرح أحدهم سؤالا:

- وماذا سيهتف مديرو مكاتبنا؟!

وجاءت الاقتراحات:

- عاش المسؤول عني.

- المسؤولية قمة الحرية والعطاء.

- الفساد موجود في كل العالم.

- لا نستطيع العيش بدون مسؤولين!

وخرجت التظاهرة في وقتها المحدد، وكان السادة المسؤولون يجلسون في مكاتبهم، يتابعون الأخبار باهتمام، ويُنْصتون جيدا إلى الهتافات التي ألَهبت حناجرَ مديري مكاتبهم، وهم يحملون بعضهم بعضا، ويحتشد الموظفون حولهم!

أرقـام

قال الرقم واحد:

- أنا الأول. لايمكن أن يسبقني رقم آخر..

وركض واثقا بنفسه!

حـزن الـرقم اثنـان، وشـعر بـالغيظ، فالطريقـة الوحيـدة التـي تمكنه من منافسة الرقم واحد هي أن لا يكون رقما!

خطرت له فكرة، فقال في نفسه:

- ((سأقول للرقم واحد، إننـي لاشيء، فهـل يمكـن لـك أن تسبقني؟!)).

وطار من الفرح. شعر أنه أصبح الرقم مئة.!

في اليوم التالي، شاهد الرقم اثنان الرقم واحد، فناداه:

- أيها الرقم واحد. أيها الرقم واحد..

التفت الرقم واحد مستفسرا، فقال الرقم اثنان:

- لايمكنك أن تسبقني، فقد أصبحت صفرا..

ضحك الرقم واحد، وقال:

- قف على شمالي لنبدأ السباق!

الرجم في غير
موسم الحج!

جمع الحصاة..

لاتكفي سبعٌ منها.. ملأ حضنه دون تردد، وبدأ برجم الشياطين من حوله، وهو يردد:

هذه للخائن.. هذه لمن يسرق مال الدولة.. هذه لمن يأخذ أجره دون أن يقدم مايقابله.. هذه لمن يغش الناس.. هذه للمرتشي.. وهذه للمحتكر..

وفكر:

((بقي معه الكثير!))

ثم قرر:

أن يرميَ ما تبقى في حضنه منها دفعة واحدة في وجه كل من يزوِّر العقل أو يشوه الذَّاكرة أو التاريخ!

زعل !

غضب منها وغضبت منه. افترقا. ذهب كل منهما في اتجاه...

لاتصدقوهما..

الحقوا بهما.. تابعوا آثار أقدامهما..

هناك عند بوابة الحديقة حيث تفوح رائحة الياسمين والـورد الجوري، التقيا، وكانت يدها تشد على يده بقوة!

مطر ملون!

كان ذلك صباح يوم قادم..

كانت السَّماء ملبَّدة بالغيوم، والمذيعة ظهرت ليلا على التلفزيون قبل نشرة الأخبار تُخبر العالم أن هذه الغيوم ليست ماطرة، وقالت لهم أيضا:

- الأرصاد الجوية لاتتوقع أن تهطل الأمطار أبدا!

قال الفلاح:

- يقطعْ عمرها.. من يعرف متى يرسل الله خيراته؟!

وقال أحد المثقفين، وهو يعود إلى كتابه:

- لا حاجة للمعطف عند الصباح!

نظر الطفل من النافذة. كان هناك عتمة. صاح بصخب واضح:

- أنا بقول رح تشتي!

كان ذلك صباح يوم قادم!

استيقظت المدينة على حركة مجموعات صامتة تخرج إلى الشارع.. تتجمع عند المنعطفات، ثم تتجه لتتلاقى في الساحات...

لم تكن مذيعة الأرصاد الجوية موجودة، والمثقف كان نائما بعد أن أمضى ليلته وهو يقرأ، والفلاح كان يتفقد الحقل..

كان ذلك صباح يوم قادم.. طرقت حباتُ المطر على النوافذ.. ثم تسارعت تُغطي رؤوس الناس والتلاميذ الذاهبين إلى المدارس..

انتبه الطفل إلى المطر... كان يركض باتجاه المدرسة، وهو يصيح:

- المطر ملون.. المطر ملون..

وكان المطر ملونا فعلا.. وكانت المجموعات الصامتة تتجمع في الساحات!

الضَّحية !

أيقظني الانفجار!

كان الكلام الحلو قد نوّمني كمغناطيس...

نهضتُ كما ينهض الميت من قبر مفتوح، والتفتُّ إلى الخلف: كان ثمة دخانٌ تحرقه النار، وقِطَطٌ تموء مقطّعة الأرجل. كان هناك أشلاء أزهار صبغها لون واحد، وكان هناك صوت قهقهة من جثة مفضوحة. سمعتُ صوت توجّع العصافير، وبكاء نسوة قريبات.

على الرصيف شاهدتُ جثتي مرمية بلا يد تكتب، وبلا عين تقرأ، وبلا قدمين تعبران شوارع الوهم إلى المحبة.

الجندي الهرم !

قرر مدير المدرسة فجأة أن أقوم أنا بحمل العَلَمِ الوطني أمام التلاميذ الذين سيرددون النشيد الوطني عند الصباح. قال مدير المدرسة للتلاميذ:

ـ عندما نرفع العلم أو نردد النشيد علينا أن نقف باحترام وجدية. وهذا التلميذ عماد نداف هو الأكثر جدية بينكم!

لم ينتبه المدير إلى أثر ذلك عليّ!

في السنوات الأربعين التالية من حياتي، أشعل مدير المدرسة في روحي قَدَاسة كبرى للعَلَمِ الذي حملته، وصار للتجهم الخفيف في وجهي معنى خاصا، بل راح يزداد. اتسمت شخصيتي بالجدية، وكان مجرد ظهور العَلَمِ أمامي يجعلني أتماسك، فينتصب جسدي، وتنتابني أحاسيس الاحترام والهيبة كجندي هَرِمٍ خاض حروبا كثيرة!

ذاك الرجل!

ذاك الرجل الأنيق، الذي يرتدي ربطة عنق أحيانا، ويحكي عن شهامته أحيانا أخرى، ويعلن أنه يصلي عند الفجر.. ذاك الرجل الذي خرج في التظاهرة، وطلب من ابنه أن يصوره وهو يهتف.. ذاك الرجل هو الذي سرق الكثير من أشيائي، وقال لي واثقا أنني لن أفعل شيئا :

- لاتخبرْ أحدا، فغدا يختلط الحابل بالنابل، وتصبح أنت متهما..!

ذاك الرجل.. ذاك الرجل.. يا الله!

الطفل يـركض !

لم يكن يبحث عن طابته. لم تكن أمه تطارده لأن ثيابه تلوثـت بالطين.. صديقه الذي يُسابقه عادة في الجري هاجر منذ سنة!

هو الآن يعود من المدرسة..

الطفل يركض نحو بيته. يلهث. وجهه أصفر..

الانفجار..

يا الله.. ((لماذا وقع قبل أن أصل؟))

يصل الطفل إلى المكان.. لم يجد بيته.. لم يجد اسمه.. لم يجد لعبته..

وجد سيارات مشتعلة وخراباً وبقايا جثث!

الكـريـه !

مثل فيلم سينمائي...

قرر الفاسد الاغتسال في البحر!

آخر الليل، خلع ملابسه ومشى في الموج. كان يمشي ولا يخاف. يقول: أيها البحر طهرني.. اجعل قلبي مثل ثلج أبيض!

وكان البحر، مع كل خطوة يخطوها يغمره بالموج..

يرتفع الموج ويهبط.. يرتفع ويهبط..

صـار للبحـر خـوار عـالٍ.. ثـم صـار البحـر يلهـث.. وعنـد الصباح أعلن البحر عجزه، ولم يعد قلب الرجل أبيض!

اتفاق جنتلمان مع الشيطان

أيها الشيطان!

دعنا نتفق. الاتفاق يجب أن يكون جدّياً .

أعرف أنك لست مبدئيا، وتعرف أنني أكرهك..

لا يهم..

نضع العناوين، ونتفق!

ليكن مايكون:

خذ كل الشياطين الذين جئت بهم. خذهم إلى حيث تشاء. أنشئ مملكة الشياطين أينما شئت.. في مانهاتن.. في هونولولو.. في بيافرا.. في بلاد الواق واق..

لا يهم..

اترك لي بلادي، ولن ألعنك مئة عام!

مئتا عام إذا شئت!

رواية قصيرة جدا:

رسم بريشة الروح!

مهداة إلى الفنان التشكيلي
حسن ديب حسن

١ - اللوحة:

قرر الرسام الإقلاع عن الرسم نهائيا، وقال:

- لن أرسم بعد اليوم أبدا!

وبحزن شديد بحث عن ريشته وألوانه وأدواته وجمعها وقرر أن يرميها بعيدا!

اقترب من النافذة. حاول فتحها، فلم يستطع.. ودون تردد، قرر أن يرسم شيئا ما لآخر مرة..

أمسك ريشته، وأخرج ألوانه، وأخذ يرسم على زجاج النافذة: رسم شمسا.. رسم طفلا.. ثم رسم أزهارا متفتحة..

لوّنها جيدا، ومسح بريشته أطراف الزجاج ثم خرج من البابَ ليرميَ أدوات الرسم خارج بيته..

في اليوم التالي عاد الرسام إلى النافذة.. اقترب منها بهدوء.. نظر الى اللوحة المرسومة على الزجاج، فرأى الطفلَ يلعب!

٢ ـ الشمس:

نامت المدينة كلها، إلا الرسام..

الرسام لم يستطع النومَ، نهض وتوجه الى النافذة.. نظر الى اللوحة، فشاهد القمر ساطعا، والطفل كان يقطف الأزهار!

٣ - مطر!

جاء الشتاء..

هطل مطر غزير ثم توقف، وبعد يومين سمع الرسام أصواتا من الخارج:

- الثلج يهطل.. الثلج يهطل!

ركض إلى النافذة ليشاهد هطول الثلج..

نظر إلى اللوحة، فرأى الطفلً وقد ارتدى معطفا سميكا، وحَمَل مظلة، وأخذ يتمشَّى تحت الثلج الهاطل!

٤ - مداعبة!

سمع الرسام نقراً على النافذة..

ظن أن صديقه الشاعر جاء كعادته كل يوم عطلة، فنهض ليفتح الباب.

عند الباب لم يجد أحدا، فعاد إلى النافذة وسأل بصوت عال:

- مَنْ يقرع نافذتي؟!

لم يُجبه أحد، فنادى مرة ثانية:

- مَنْ هناك؟؟!

وَهَمَّ بفتح النافذة..

انتبه إلى الطفل المرسوم على الزجاج..

كان يُلوِّح له بيده ويضحك!

٥ ـ مفاجأة!

مرَّت فصولٌ كثيرة..

الرَّسام انشغل بحياته اليومية، لم يعد يتذكر ريشته وألوانه، وانشغل حتى عن النافذة!

جاء شتاء عاصف، هبَّت ريحٌ قوية عاتية، وشعر الرسام أن البيت يهتز!

وفجأة! فُتحت النافذة بعنف واصطدمتْ بالجدار وتحطمت!

تناثر الزجاج، فسمع الرسام أنَّاتٍ ضعيفة!

تـذَّكر اللوحة التي رسمها ذات يوم على زجاج النافذة. ركض إلى قِطَعِ الزجاج.. بحث بين الشظايا فوجد بقايا لوحته..

كانت الريح تعول، وكان الرسام ينظر بحزن الى قطعة من الزجاج وفيها كان الطفل ميتا وفي يده زهرة ذابلة ومعطف مهترئ وبقايا مظلة ملونة مزقتها الريح!!

كتبت في ٢٠ /٥ /٢٠٠٠

ملحق

حكايات قصيرة جدا

أرجوكم..
اقرؤوا حكايتي هذه !

وهبني الله ابنتين، واحدة منهما تحب الحيوانات الأليفة، فهي حساسة جداً لا أعرف كيف أتعامل مع حساسيتها. ومرة طلبتْ شراء أرنب صغير.. اشتريتُ لها أرنباً أبيضَ، فمات بعد خمسة أيام فأشعلَ الحزنَ في صدرها..

عندما مات الأرنب عمَّ الحزنُ بيتنا، ثم نزلتُ أنا لرميه خارج البيت بعيداً عنها، راحت ابنتي تصرخ وتولول من النافذة، وطلبت مني دفنه في الحديقة المقابلة لنا، فدفنته ووضعت شريط كاسيت كشاهدة على قبره!

في المرة الثانية اشترت هي (صوصاً) من بائع جوال، فصار الصوص يمشي ورائي كلما تجولت في البيت،

وكأنني الدجاجة أمه، ثم ما لبث أن مات، وأقمنا له أحزاناً جديدة، وضعته في كيس نايلون، وأخذته في سيارتي، ثم ألقيته في نهر بردى!

ومرة اشترت هي سلحفاة صغيرة، ووضعتها في البيت، أضحت السلحفاة واحدةً منَّا، تأكل الخس وتتجول في مكتبتي وغرفة نومي دون أن تسألني، إلى أن نقلتها إلى القرية لتمضي بياتها الشتوي، وهذه السنة اكتشفنا أنها وجدت زوجاً، وكان هذا حجة لي أن لا أعيدها إلى البيت، لأن زوجها لايقبل، كما قلت لابنتي، وهذا حقه شرعاً وقانوناً، فصمتت ابنتي وهي توافق على حجتي بحزن!

اشترت ابنتي في الفترة الأخيرة (كنارا)، ووضعته في غرفتها. كانت تعتني به، وتضع له الطعام والماء وتنظف قفصه كل يوم ثلاث مرات وتؤنبه على قذارته، وبعد شهر غيّرت مكان القفص، ووضعته عند حافة الشرفة وربطته كي لا يسقط، وهنا بدأتُ أراقب العصفور باهتمام...

جُنَّ العصفور. نعم جُن، ولم تنتبه ابنتي إلى مشكلته. كان يشاهد عصافير الصباح وهي تنطلق في رحلة الحياة اليومية، تستيقظ على الزقزقة والفرح والطيران، والتقاط شتى أنواع الأطعمة، أما هو فكان في القفص. لايوجد عنده سوى القضبان، وطعامه: ماء وقنبس!

عندما تستيقظ العصافير في حارتنا، يستيقظ الكنار معها، ويبدأ موجة زقزقة مذهلة لاينتبه أحد إليها إلا أنا، فقد كنت الوحيد الذي أستيقظ باكراً.. وعندما تنطلق موجة الزقزقة المسائية تعلو زقزقته وكأنه واحد منها..

راقبت حركاته داخل القفص.. إنه يَرُدُّ على زقزقة العصافير، وكأنه يحكي معها.. كأنه يشتكينا. نحن الذين اشترينا له قفصاً جميلاً، وأقنعناه بالشرفة والهواء الطلق والقنبس (!)

حاولت ترجمة زقزقته، فوصلت إلى اجتهاد مضمونه: إن الكنار يقول للعصافير إن هذا البيت لطيف وكريم، ولكن أصحابه وضعوه في القفص وهو يحب الحرية والطيران.. يريد

أن يبنيَ بيتاً ويُنشئ أسرة من العصافير.. يريد أن يرى السماء الزرقاء والأشجار من فوق.

يا ألله كيف راحت المشكلة تكبر في داخلي. العصفور صار مشكلتي. أصابني وسواس العصافير.. كل صباح يزقزق عصفورنا مثل كل العصافير، ولاتنتبه ابنتي إليه. لاينتبه أحد إليه إلّا أنا..

صباح يوم، وقفت على الشُّرفة، ترجمت كل زقزقات الصباح التي سمعتها، فهمت معناها جيداً.. فكَّرت جدياً بحزن ابنتي على فقدانه، ومع ذلك قررت أن أُطلق سراح العصفور!

حكاية «نوتة» للتاريخ!

قد لا تعرفونه..!

قد لاتعرفونه، فقد غطَّى الدمُ وجهه..

أنا أعرفه، لأنه قال لي قبل أن يذهب إلى حلب آخر مرة:

ـ لن أنقل أوراقيَ إلى جامعة دمشق مهما حصل؟ لن أشبع من حلب أبداً!

قد لا تعرفونه، فقد رفض أن تشتري له أمه معطفاً أسود أنيقاً للشتاء، وقال لها وهو يحضن وجهها بكفيه الباردتين:

ـ ياست الكل.. اشترِ وقوداً لإخوتي لشتاء هذا العام، أما أنا فيكفيني لفحة الصوف التي نسجتها أصابعك!

لم تشأ أمه أن تُطفئ حيويته، كانت تقول له:

- ابقَ في حلب، ولكن انتبه إلى نفسك!

وكان يبقى في حلب ولا ينتبه إلى نفسه!

كـــان يمـــشي في أروقـــة الجامعـــة، وفي شـــوارع المدينـــة وفي حاراتها..

يـذهب إلى بـاب الأحمـر قُبالـةَ القلعـة ويـشرب القهـوة.. يذهب إلى باب قنسرين ويتناول إفطار الفول الطيـب.. يـذهب إلى الحديقـة العامـة ويـركض فيهـا عنـد الـصباح.. ولا ينتبـه إلى نفسه.

* * *

كان يلفُّ وشاح الصوف على عنقه، ويضع كتابه تحت إبطه، ويمشي يغني لـدفء الـبلاد وأطفالها وشمسها وَغـدِها، وكـان يقولُ لكل أصدقائه:

- أنتم لاتعرفون كـم أشـعر بالـدفء وأنـا ألـفُّ وشـاح أمـي حول عنقي!

وكان أصدقاؤه يرددون:

- يا لهذا الشاب كم يحب أمه!

قد لا تعرفونه.

فقد تلوّنّ شالَ الصوف بدمه، وارتمت أوراقٌ فوق وجنتيه وفمه لتخفيَ ابتسامته، تلك الابتسامة الواثقة بأن المعطف الذي أرادت أن تشتريه أمه نجا من المجزرة، وأن إخوته يشعرون الآن بالدفء!

أنا أعرفه، فبين صفحات الكتاب الذي كان معه، توجد نوتة للتاريخ، وهي ليست له، لأنه يدرس الهندسة منذ سنتين، وكنت أريده أن يدرس التاريخ.. هي لي، لي أنا.. قد لا تعرفون هذا. طلبها مني عندما نجح في الثانوية العامة، وأحب أن يقرأها!

أتعرفون.. ماذا كان مكتوبا فيها؟!

قد لاتعرفون ماكان مكتوباً في نوتة التاريخ لأنها غرقت في دم الآخرين الذين تساقطوا حوله في جامعة حلب ذلك الثلاثاء الأسود!

أنا أعرف ما كان مكتوباً فيها.. سأقول لكم ما كـان مكتوبـاً فيها:

كان مكتوباً فيها: ((سورية تاريخ حضارة!)).

لذلك كان يضعها دائماً في كتبه ويحملها إلى كـل مكـان، تمامـاً كما يفعل بوشاح أمه، لم يكن يخاف الموت في الجامعـة والـشوارع والحارات لأن سورية تاريخ حضارة.

أنتم لا تعرفونه، أما أنا فأعرفه جيداً:

مات وهو يحلم، وحول عنقه وشاح أمه ونوتة للتاريخ!

حكاية الهدهد، الذي كان
مع أمي عندما سافرت بلا حقائب!

خرجتُ من السجن، كانت الساعة قد قارَبت العشر سنوات إلا خمس دقائق، كنت أرددُ كلمات آخر قصائد الحب التي قرأتها هناك لسجين بلغ اثنين وستين عاما، كتبها لأمه و قال لها: ضميني إليكِ مثل طفل صغير!

كان خائفا من أن تموت، فحسدتهُ معجبا بقصيدته وبأمه التي مازالت على قيد الحياة مثل شجرة سنديان..

بعد شهرين، مرضت أمي.. توقفت عن الكلام. عرفتُ أنها أضربت عن الكلام، فآخر عبارة قالتها هي:

- تفووو!

ولم أعرف على من..

كانـت لا تتـألم، وتقـوم بتثاقـل، ثـم لم تعـد تـستطيع الحركـة، رَجوتُها أن تقـوم فلـم تفعـل، أضربـتْ أيـضا عـن القيـام، وآخـر حركة قامت بها هي دَفْعُ أصابعها بعيدا وكأنَّها تطرد أحـدا مـا.. ثم ما لبثت أن أضربتْ عن الطعام، فيبقى الطعـام في فمهـا يومـا كاملا إلى أن أُخْرِجُه أنا بإصبعي!

في الأيام الأخيرة، شاهدتُ الهدهد فوقها. كان لونـه أخـضرَ، وكانت عيناه قريبتين من عيني بني آدم، وكأنه يعبّر بعينيـه. كـان يرافق صمتها وجوعها وآلامها المخفية، سألته:

- اسمع أيها الهدهد! اترك أمي وشأنها!

قفز الهدهد إلى الجانب الآخر، ورمقني محتجا!

قال أخي:

- جن أخي!

وقال جارنا للشرطة وهم يسألون عن سلوكي بعد خروجي من السجن:

- جارنا جُن!

ضحك رجال الشرطة، واطمأنوا. ولم يحكِ أحد عن الهدهد!

في آخر أسبوع، هَزُلَ جسد أمي، وراح لحمها يتآكلُ لأنها لا تتحرك على الفراش، وكنت أحاول تقليبها ومسح الدماء عنها، دون جدوى.. كان الهدهد يراقبني، إلى أن ظهر عظمها، وظهرت أجزاء من كليتيها.. وكان الهدهد يراقبني باهتمام!

ذات يوم، وكان ذلك صباحا..

تحرك الهدهد على غير العادة، كان ينطُّ حولها في أرجاء الغرفة كأنه يتحفز لشيء ما. سمعتُ صوتها:

- أريد ماء!

لم أصدق. الهدهد لم يصدق أيضا!

أوقفتْ أمي إِضرابَها عن الكلام. ركضتُ نحوها وبيدي الماء، نطَّ الهدهد كمجنون يرقبني من الجهة المقابلة، أحسستُ أنها تريد أن ترحل..

قلت لها:

- ابقي قليلا..

ابتسمت..

حركتْ وجهها رافضة، وكان الهدهد قد غيّر مكانه.. ليسمع حديثنا بوضوح.. طلبتُ منها أن تنحني لله، وتخبره أنني سأعود طيبا، وأن الشرطة سألوا جارنا عني وارتاحوا كثيرا بجوابه..

ضحكت أمي.. وردَّدت شيئا. أغمضتْ عينيها وفاحت منها رائحة حليب قديم شربتهُ من ثديها وأنا طفل صغير..

بحثت عن الهدهد، لم أجده..

صرختُ:

- آآآ.

أخذ الهدهد عرشها قبل أن يرتد طرفي إليَّ..

قال الجميع إنها ماتت، وأيقنت أنا أنها ملكة، وإلا ماذا كان يفعل الهدهد عندي!

حكاية الشاب
الذي يحب الدفء!

كان يشعر بالبرد أكثَر من جميع الأصدقاء.. كان يتعامل مع البرد وكأنه وحش مؤذٍ، فيقول:

- البرد معه دبابيس يغرسها في كل الجسد، وفي القلب أحياناً، فتشعر بموت بطيء يبدأ في أطرافك، ويصل سريعاً إلى وجهك، ثم قلبك..

كان يحتجُّ عندما نُخبره بأنه يبالغ:

- أنتم لا تحسُّون بيديه عندما يصفعني على وجهي، فيداه تحرقان الوجه وتشوهان ملامحه.. البرد أقسى من الرصاص.. أقسى من الحريق، تصوروا!

كـان نحـيلاً، يـداه الواهنتـان تحتـضن إحـداهما الأخـرى في أيـام الـبرد الـشديد، وتـراه وهـو يـنفخ فـيهما، ثـم يفـركهما جيداً لتدفأا.. ترتسم على وجهه علامات الضعف، ومع ذلك كـان قـويَ الإرادة، واثقـاً بنفـسه.. وكـان جميـلَ الـصوت، كثيرَ الدندنة!

عندما كان يدندن بصوته المنخفض، يصمت من حوله، فيصغون إلى غنائه العذب، ثم يطرونه، ويقولون له:

ـ جميل.. جميل.. يا ألله ما أحلى صوتك!

لكنه كان يقول لهم:

ـ صوتي؟! هه هو صوت كل إنسان عندما يكون صادقاً!

* * *

ذلك المساء، كان يدندن أغنية جميلة عن الحب والدفء والوطن، عندما سمع بأن المازوت توفر في الكازية.. قال له صديقه على الهاتف:

- لَحِّـقْ حالـك.. الطـابور في أولـه، فقـد وصـل صـهريج المازوت بأمان هذه المرة، والحمد لله!

كان يود لو أن ثمةَ وقتاً لِيُتِمَّ الأغنيةَ التي بدأها قبل أن يَرن الهاتف، لكن الدفء والمازوت أهم هذه المرة.. اندفع يحمل وعاءً من البلاستيك واتجه ليشتري المازوت من الكازية. شاهدوه وهو يقف بنظام أمام رتل من الأطفال والنساء وبعض الرجال الذين يُحبون الدفء مثله.. كان يقف بجوار وعائه البلاستيكي صابراً هادئاً، ويغني منتظراً الدور الذي لن يأتي!

- ها..

قال له طفل صغير يليه في الدور، فالتفت إليه بفضول، وسأله:

- في شي عمو؟!

رد الطفل:

قرّب دورك! أنا بعدك!

ابتسم.. شعر بالأمل، فبعد قليل سيحمل حصته من المازوت، ويرجع بها معه إلى البيت.. تصَّورَ أن غرفَتُه ستعود إلى الدفء الذي كانت عليه من قبل.. أو ربما تصَّور أن البرد انهزم هذه المرة على الأقل ريثما تَرِدُ الدُّفعة الثانية من الوقود إلى الكازية!

* * *

فجأة سمع صوته.. كان صوته مصحوباً بلهيب كبير.. كان صوته غريباً طغى على إحساس الآخرين بالبرد.. لم يعد يحس بالبرد. كان البرد أخفَّ بكثير من هذا الذي حصل.. دوّى الانفجار، وتطاير الرتل الطويل في وهج الحريق المشتعل، وعلى شرفات المنازل القريبة كانت أشلاؤه تحكي حكاية البرد والدفء ووحش اسمه: الانفجار يقال إنه أقسى من البرد وحتى الحريق!!

حكاية الرجل العجوز
الواقف في طابور الخبز!

عند الساعة السادسة صباحاً، توكأ الرجل العجوز على عصاه، وذهب إلى الفرن. أخبروه أن الازدحام شديد، وأنه سيتعب ريثما يأتي دوره، فهز رأسه، وضحك ثم مضى إلى هدفه!

في الطابور كان كثيرون قد سبقوه ووقفوا ينتظرون الدور، فراح يحكي لهم حكاية الطوابير، يحكي ويلهث، كان حديثه آسِراً وجذاباً، وكان الجميع يُنصتون إليه، أولئك الذين قبله وأولئك الذين كانوا بعده في الطابور!

قال العجوز:

- أيام الأتراك في حرب الأربطعش، وقف السوريون في الطابور. وقفوا في الطابور من أجل الخبز، ومن أجل تسليم المحصول لجيش العصملي، ومن أجل تسليم أنفسهم للسلطات التركية التي جنَّدتْ كل قادر على حمل السلاح.. كان السوريون يحبون بعضهم بعضا، وكانوا يحترمون بعضهم بعضا، وكانوا يخيفون الأتراك نتيجة هذا الحب وهذا الاحترام!

* * *

مشى طابور الخبز عدة خطوات، فمشى العجوز معه، ثم ارتاح قليلاً، واستأنف حديثه:

- أيام الفرنسيين.. وقف السوريون في الطوابير عندما حاصرت سلطات الاستعمار مدنهم وقراهم، لأنهم أيَّدوا ثورة سلطان باشا الأطرش والشيخ صالح العلي وحسن الخراط وإبراهيم هنانو.. كانوا بحاجة إلى الطحين والخبز، وحتى إلى الماء أحياناً.. وكانوا متكاتفين.. موحدين.. أقوياء.. وكانوا يخيفون الفرنسيين بحبهم لوطنهم!

* * *

مشى طابور الخبز عدة خطوات، فمشى العجوز معه، ثم ارتاح قليلاً، واستأنف حديثه:

- عندما قامت الحرب العالمية الثانية.. لم يعد هناك خبز ولا طحين ولا طابور.. كان الفرنسيون والألمان يتصورون أن السوريَّ سيتحول إلى وحش وسيأكل السوريُّ السوريَّ، لكن السوريين تضامنوا وتعاونوا وأوصل بعضهم الخبز لبعضهم الآخر، فأخافوا الفرنسيين والألمان والإنكليز بتضامنهم ووحدتهم.

* * *

مشى طابور الخبز عدة خطوات، فمشى العجوز معه، ثم ارتاح قليلاً، واستأنف حديثه:

- بعد الاستقلال وقفنا بالطابور أثناء حرب فلسطين، وأيام الانقلابات، وأيام الانفصال، وكان السوريون موحدين بوجه الحرب والانقلابات والانفصال...

* * *

مشى طابور الخبز عدة خطوات، فمشى العجوز معه، وكان متعباً ومع ذلك استأنف حديثه:

- في حرب حزيران عام ١٩٦٧ وفي حرب تشرين عام ١٩٧٣، وفي كل الأزمات وقفنا في الطابور، والآن نقف في الطابور، ومازال السوريُّ يحب السوري، ويجب أن يحب السوريُّ السوريَّ.. ضروري أن يحب السوريُّ السوريَّ!

جاء دوره بعد ساعتين.. فسأله بائع الخبز:

- كم ربطة خبز تريد ياحاج؟

فقال بصوته المتعب وجسده الواهن:

- واحدة يا بني.. واحدة تكفيني.. ألله يديم هذه النعمة!

ستاتوس!

ملاحظة:

جعلتنا الشبكة العنكبوتية أسرى لها..

لايهم..

أحيانا يكتب فيها مايفرح القلب،

وأحيانا نقرأ أشياء تجعلنا نحتج!

المقاطع التالية مكتوبة بين عامي ٢٠١٢ـ٢٠١٤ على صفحة عماد نداف على الفيس بوك

وطـن:

انقر على الأرض بأصابعك..

إياك أن تجرح ترابها..

انقر عليها كأنك تعزف على العود..

وانتظر، ستردُّ عليك بجلالة الكلمات..

هذه الأرض مستقرك الأبدي..

لأنها وطن!

ولد صغير!

أنا ولد صغير..

صحيح أنني أقارب الأربعين..

صحيح أن بطنيَ قد أصبح رخواً..

و أن أسناني بدأت تهتز..

إلا أنني طفل.. أريد اللعب.. أريد الشغب..

أريد أن أضرب أقفية الملوك والأمراء وقادة الأحزاب بيدي..

ثم أفرَّ بعيدا، وأضحك من الحراس..

الذين سينتشرون بحثا عن إرهابي صغير!

من الدفاتر الضائعة

لعماد نداف (١٩٨٩)

ترابٌ غالٍ !

اجمع ترابَها بين كفيك..

ضعْ فوقَه ماء من بردى أو العاصي أو الفرات..

اعجنه بيدين طاهرتين..

وانثر فوقه قمحا.. أو زهرا..

أو اغرس سيفا دمشقيا إذا شئت..

تجده حقلا بحجم العالم!

لعب!

رافقني القمر هذا الفجر..

رافقني طيلة الطريق. كان يلعب كطفل صغير..

مرَّة يظهر أمامي، ومرَّة على يميني، ومرَّة يختفي خلف التَّلة، ومرَّة يعود فيظهر من جديد..

أخيرا اختفى نهائيا، وسمعته يقول:

يا لهذا السوري الذي لايحبُّ اللعب!

شغب!

أنا الولد المشاغب..

يحمل حقيبة كتب كرحَّالة غادرتهُ البلدان..

لماذا تركضون ورائي؟

لماذا تُلوِّحون بكلِّ هذه الرماح.. بكل هذه الخناجر؟

وتصرخون: قف ولا!

هل تخيفكم كُتبي إلى هذه الدرجة؟

بسيطة.. سأرسم على ظهري لسانا ممدودا..

وأركض وأركض إلى نهاية العالم!!

من الدفاتر الضائعة

لعماد نداف (١٩٨٩)

وجهة نظري !

خذوني إلى أرضي..

أكتب فيها عن التراب النَّدِي قصتي..

خذوني إلى بيتي.. أرسم على جدرانه وحشة الرُّوح..

خذوني إلى أمي..

أحكي لها عن الطفل الذي ضاع في الحارات القديمة التي خربتها الحرب..

خذوني إلى الضحايا لأحكي لهم وجهة نظري!!!

كأنه السحر !

اكتب اسمها على صفحة يدك، ولوِّن حروفها الخمسة بالأخضر، ثم ضع يدك فوق التراب..

ارفعها..

بعد دقيقة، تنبت شجرة!

* * *

اكتب اسمك على ((الكراس)).

قل إنَّك مثلي.. قل إنَّك تحب الشَّجر والمطر والزهر..

قل أيضا: أنا أحب إخوتي وجيراني وأصدقائي وأبناء بلدي وأشعر أني إنسان.

وارسم في نهاية صفحة الكرَّاس ياسمينة!

تشم رائحة الياسمين!

* * *

اكتب اسمها على يدك. أغلقها، ثم اضمر حبا لها!

بعد دقيقة افتح يدك:

تشاهد وردا وياسمينا وقمحا وزيتونا وفستقا ومشمساً..

تشاهد حارات جميلةً وبيوتا ساحرةً وصبايا..

تشاهد كتبا وتاريخا وحضارة وفنا..

تسمع صوت أنبياء يدعون الله أن يحميها..

أغلق يدك سريعا كي تبقى بقلبك!

العمر!

هذا اللعين كيف فرَّ من أصابعي؟!

لو أني أعرف، لربطته بأربعين حبلا كي لا يهرب مني..

هـذا الوغـد الـذي اسـمه عمـري، لـو أني أعـرف أن نـصفه سيمضي في السجون والأزمات والأحزان والخوف على وطنـي، لكنت سامحت نفسي بهذا النصف ورحـت أركـض في الـشوارع خلف ظلِّي، وإلى جانب فتاة أحبها!

وردة ذابلة !

البحر نام على يدي..

دغدغته إصبعي التي ترسم على الرمل

فنااااام

صحا البحر فجأة..

كنت أرسم وردة ذابلة!

نظر إليَّ بغضب، ثم محاها بموجة عالية!

آثام!

المطر جُنَّ يومها..

ارتدانا كقميصين ضيقين. حاولنا أن نخرج منهما. لم نستطع.

قلت لها: سيتوقف.

لم يتوقف!

قالت لي: صار مزاريب!

قلت لها: سيتوقف..

لم يتوقف..

صار شلالات. ثم صار سيولا. وكانت السماء تمطر وتمطر، وإلى الآن تمطر وتمطر وتمطر، وتعلن عجزها عن غسل آثامنا!

فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

لمحة موجزة عن الكاتب

عماد نداف

عماد نـداف، أو عـماد عبـد اللطيـف نـداف، كاتـب وصـحفي، مواليـد عـسال الـورد /دمـشق ١٩٥٦، عـضو اتحـاد الكتـاب العـرب منـذ عـام ١٩٩٨. ونشر مقالات ودراسات مختلفة في الـصحف العربيـة والمحليـة: السفير، النهار، الحياة، تشرين، الثورة، الوطن..

نشر الرواية والقصة وحاز على عدد كبير من الجوائز، كـما كتـب الدراسات..

و من أعماله الأدبية:

- ورده غان رواية .
- الكتابة على الماء قصص .
- ما الذي حصل يا إلهي قصص .
- جرائم شتوية قصص .
- عكاكيز التاريخ رواية «مخطوطة».

ومن الكتب والدراسات:

- الأحزاب والقوى السياسية في سورية دراسة
- الدراما التلفزيونية (من السيناريو إلى الاخراج) دراسة بمشاركة أخيه«محمد نداف»
- تطور النص الدرامي السوري«السيناريو» مخطوطة

أعد وأخرج مئات البرامج التلفزيونية والإذاعية من بينها:

- آلة الزمن : ٣٠ حلقة منوعة.
- آخر المشوار : برنامج منوع ١١ سنة.
- نجوم النهار : تسجيلي ١٤ حلقة.

وغيرها من البرامج المنوعة والتسجيلية.

الأفلام الوثائقية:

- ثلاثية : الوطن في العينين .
- فيلم الفلسطيني الطيب«جائزة تقديرية» من اتحاد الإذاعات
- الارهاب صناعة من؟! ١٠ حلقات«جائزة تقديرية من مهرجان القاهرة».
- يحدث في الشرق«ثلاثية عن حرب الخليج».
- حريق منهاتن«ثلاثية عن أحداث ١١ أيلول».
- حدث في هذا المكان« ١٠٠ حلقة».

إضافة إلى عشرات الأعمال الأخرى..

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة